دقات على باب مصر

الأيام المصرية لابن خلدون

هذا حديث آخر فارسه ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون والذى قد بلغ الثانية والخمسين من العمر وهَمَّ بزيارة القاهرة. فكتب يقول: «سألت صاحبنا قاضى القضاة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرى كيف هذه القاهرة؟ قال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية فقال: كأنما انطلق أهلها من الحساب لكثرة أممه وأمنهم العواقب وسألت الفقيه الكاتب أبا القاسم البرعى فقال: إن الذى يتخيله الإنسان فإنما رآه دون الصورة التى تخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها».

وهكذا يمكن القول إلا القاهرة... فبنص وصف ابن خلدون هى حاضرة الدنيا وبستان العلم ومحشر الأمم وإيوان الإسلام وكرسى الملك التى يبدو نيلها وكأنه نهر من الجنة فهى البلد الذى له مداه فى العمران واتساع الأحوال ومن يره لم يصدق زحام المارة والأسواق. وهى البلد التى استقرت فيها حياته وحتى الممات بعد أن عايش الكثير من الأمم والممالك.

هذه كلمات للمفكر العربى الكبير ابن خلدون يحكى عن مدينة القاهرة التى جاءها وهو فى الثانية والخمسين من العمر، واستقرت

حياته بها بعد أن عاش فى الكثير من الأمم وخبر البلاد والمسالك وقد جاء بعد أن عقد العزم على استهلال القاهرة للاشتغال بالجامع الأزهر بداية من شهر رمضان عام ٨٧٤هـ. كما يؤكد المؤرخ المقريزى وابن حجر العسقلانى وابن تغربردى وكل من عاصروا سنواته المصرية.

وبداية قبل أن يأخذنا الحديث بعيدا فربما يفيد أن نتعرف إلى ابن خلدون من قرب وإن كنا بداية نسجل فى هذه المساحة كلمة عن علم الاجتماع الذى ولد على يديه والذى كان كائنا محظوظا حقا بتجربة هذا الرجل العريضة فى الحياة والتى لولاها لما أصبح هناك علم بهذا الاسم.

ولد ابن خلدون فى تونس عام ٧٢٣هـ. وكانت عائلته فى الأصل تعيش فى أشبيلية ثم نزحت بعد ذلك إلى سبتة ثم إلى تونس.

فكما يقول د/ الحسين اليعقوبى فى مقاله «بنو خلدون: من أشبيلية إلى تونس» يجمع أهل العلم أن الاسم «خلدون» المسبوق بابن ليس كنية لهم وإنما هو اسم الشهرة لخالد الداخل إلى الأندلس. وقد صار اليوم ينصرف إلى مؤلف العبر وهو اسم عربى مشتق من الخلد ومعناه الدوام، واسم خالد واسم أبيه عثمان قديمان. وهما مما كان يتسمى بهما العرب الخلص ويؤكد عروبتهما نسب سلالتهما العربية المرفوع حسب التعريف من وائل بن حجر إلى قحطان ويؤيدها انتماء أصلهما إلى الأخيار من قبيلة حضرموت أصيلة اليمن قاعدة ملوك حمير والتبابعة.(٤٨)

ولعل هذا النسب وفى رأى الحسين اليعقوبى هو ما مهد له الطريق لكى يبحث دائما وطيلة حياته عن مكانة عالية. فابن خلدون كان دائما يخطب ود أصحاب المكانة الرفيعة من السياسيين وذوى الرئاسات العليا.

وهـو موقـف لا يختلف عليه الكثـيرون ممن كتبوا عـن ابن خلدون وبعضهـم يقول إنه لم يكن مؤرخا ولا عالم اجتماع أو أن هذا العلم قد ولد محظوظا فى بلاط السلطان وأن ابن خلدون نفسه كان يتقن لعبة السلطان.

وعن هذا يفرد المقال نفسـه أنباء أخرى عن أنه من السذاجة حينئذ أن يصدق المرء أن ارتحالهم عن المشرق كان مجرد تنفيذ لمقتضيات سياسة الوليد بن عبد الملك الهادفة إلى خلق توازن عرقى.

وإنمـا قد يكون دفـع إليه الدم الجارى فى عـروق القحطانى بحب الرئاسـة والرغبة فى الاسـتقلال بإمارة. وهى نـوازع حركت فى تلك الوهلة جميع الأسـر العربية الأرسـتقراطية لطلب الرئاسـة على أثر انتقال عاصمة الأندلس من أشبيلية إلى قرطبة.

إنهـا برزت بصورة أجلى فى المنافسـة الشرسـة التـى أبداها بنو خلدون حيال بنى عبدة وبنى حجاج على ولاية قرمون وأشـبيلية، وأما فكرة التوطن بسـبتة بعد الرحيل عن أشبيلية فقد خامرت بنى خلدون منـذ أمد إلا إنها ربمـا لم تلح عليهم إلا إثر إيـال الأمر إلى أبى عمرو وابن الجد وقتل عام ٦٤٤هـ. لتجرئه عام ٦٣٠هـ. على أثر طرد بيت بنى الحجاج أعتى منافسيهم على السلطة من أشبيلية إلى سبتة.

ولعل اضطراب الأحوال السياسـية بها وتوالى أعوام الشدائد عليها مثل العام المشهور عند أهل سبتة بعام جنوة وهو عام ٦٣٣هـ. وقيل عام ٦٣٦هـ. وعام سـبعة أى عام ٦٣٧هـ. وهو عام المجاعة هو ما أرجأ تنفيذ فكرة الهجرة مدة ناهزت عقدا من الزمن.

ومما لا شك فيه أن قرار الرحيل عن أشبيلية لم يتخذه بنو خلدون نتيجة الخشية من سوء العاقبة فقط وإنما كان أيضا لتوجس الشر من عواقب مواقفهم السياسية من تنافس ابن هود وابن الأحمر على السلطة من ناحية، ومن استشراف قلة ما صار يمسك ما بقى من رمق الأندلس بعد ما عمت الثورة كامل أرجائها وازدياد الضغط النصرانى عليها من ناحية أخرى، وربما يعود تاريخ آخر عهدهم بأشبيلية إلى ما بعد مقتل ابن هود سنة ٦٣٥هـ. واستيلاء ابن الأحمرعلى غرناطة سنة ٦٣٦هـ.(٤٩)

وبرغم أن هذا الحديث حول نسب ابن خلدون ربما يعطينا فكرة عن حجم الأمواج المتلاطمة التى كانت تعيشها الأندلس والتى اعتبرت فى كل مراحل تواجد المسلمين بها مثلا جيدا لتعايش أصحاب الديانات المختلفة إلا إنها وفيما يبدو كانت أيضا أرضا للتنافس لم يعرف له مثيل.

كما أنها كانت من أهم الكيانات التى لولاها لما استمرت مسيرة الاستعارة الأوربية من العلوم الشرقية.

إلا إن هناك أسبابا أخرى لهذا السلوك الخلدونى الذى اتبعه ابن خلدون خلال حياته والذى جعله عالما بحياة المجتمعات يتلخص فى رحلة حياته الطويلة والزاخرة بالأحداث والشخصيات المهمة التى قدر له الله تعالى أن يلتقى بهم.

فعندما بلغ ابن خلدون الثامنة عشرة اجتاح وباء الطاعون بلاد المسلمين حتى إنه وكما أشار د/ على عبد الواحد وافى فى كتابه: «عبد الرحمن بن خلدون» حياته وآثاره ومظاهر عبقريته أهلك فى يوم واحد بتونس ألفا ومائتى نسمة وبتلمسان بالجزائر سبعمائة نسمة. كما أنه أيضا وفى هذا العمر الصغير قد شهد هجرة معظم الأدباء والعلماء من تونس إلى المغرب الأقصى(٥٠).

والدخول إلى حياة ابن خلدون والتوقف عند تفاصيل تفاصيلها يشبه الدخول فى غمار البحر الهائج بلا خطة أو خبرة ولهذا فما يهمنا هو رحلته إلى القاهرة وهى مبتغى القصيد والتى جعلته يرى عن قرب دولة المماليك وحكمهم فى مصر الذى كان حجر زاوية للقوة فى جنوب البحر المتوسط.

فهم كما قال عنهم فى كتابه «التعريف»: «أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون بإنشاء المدارس لتدريس العلم والخوانق لإقامة رسوم الفقراء فى التخلق بآداب الصوفية السنية وفى مطارحة الأفكار ونوافل الصلوات أخذوا ذلك عمن قبلهم فى الدول الخلافية (الخلافة) فيختطون مبانيها ويقفون الأراضى المغلة للإنفاق منها على طلبة العلم ومتدربى الفقراء وإن استفضل الريع شيئا عن ذلك جعلوه فى أعقابهم خوفا من الذرية الضعاف من العيلة (الفقراء) واقتدى بسنتهم فى ذلك من تحت أيديهم من أهالى الرياسة والثروة.

فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة وأصبحت معاشا للفقراء من الفقهاء والصوفية وكان ذاك من محاسن هذه الدولة التركية وآثارها الجميلة الخالدة.(٥١)

ويعيش ابن خلدون فى مصر متحليا بهذا المنطق الذى يجعله مقبولا من دولة المماليك ومن سلطانها برقوق الذى يدخل ابن خلدون إلى أرضه المصرية عقب عشرة أيام من توليه الحكم وبخطاب توصية يرشحه لنيل الحظوة من الحكام المماليك.

فابن خلدون بحكم خبرته فى دوائر السلطان يعرف كيف يستميل برقوق المملوك الجركسى الذى وصل إلى سدة الحكم معتمدا على مهاراته العقلية والحربية والذى يريد أن يحصل على ترضية نفسية ممثلة فى ولاء العالم ابن خلدون له. فيقبل برقوق بوجود ابن خلدون فى معيته ويكتب إلى سلطان المغرب يقول: «لقد آثر ابن خلدون الإقامة عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده بل تحببا إلينا وتقربا إلى خواطرنا بالجواهر النفيسة من ذاته الحسنة وصفاته الجميلة»(٥٢).

ويحدث ما يقربه أكثر من السلطان، حينما يغضب السلطان على قاضى قضاة المالكية جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان بن خير غضبا يطيح به ليجلس ابن خلدون على هذا المقعد الوثير الذى لا يجلس عليه إلا كبار العلماء والمفكرين.

ويتقاسم مع قضاة المذاهب الأخرى الحظوة لدى السلطان إلى أن يثور يلبغا الناصرى نائب حلب على برقوق وتنتهى الثورة بخلع السلطان الشرعى برقوق فيختل توازن ابن خلدون ويتوارى نجمه مع من توارى نجومهم ويحسب ابن خلدون من ضمن المقربين إلى برقوق فيفقد مكانته وتذهب قوته.

إلا إن هـذا الحال لا يستمر طويلا حين ينجح برقـوق بعدها فى استجماع قوته ويعود إلى عرشه ويعتبر فعل يلبغا الناصرى الثورى مجرد مؤامرة على السلطان وشرعية الحكم فيعود ويعود معه مجد ابن خلدون، وإن كان برغم نجاحه فى التخلص من آثار الماضى القريب الذى أخذ منه أكثر مما أضاف لا يستطيع أن يستعيد مكانته كاملة لدى برقوق وخاصة بعد أن فطن السلطان إلى أن ابن خلدون كان أحد الفقهاء الذين وقعوا منشورا ضد برقوق بإيعاز من يلبغا الناصرى.

والحقيقة إنه كان قد أرغم على هذا التوقيع وإن كانت حقيقة دوافعه غير واضحة. فإلى الآن لا يعرف أحد ما إذا كان ابن خلدون قد وقع على هذا المنشور بدافع الخوف من بطش يلبغا، أم إنه وقع عليه بدافع البحث الدائم عن السلطان وإيمانا منه بأن من «غلب ركب»!

ويدفع ابن خلدون ثمن هذا التوقيع بعزله من وظيفة شيخ خانقاه بيبرس إلا إنه يعاد مرة أخرى إلى منصب قاضى قضاة المالكية الذى قد ترك مقعده لأربعة عشر عاما كاملة لكيلا يعتقد أحد أنه من الممكن لمخلوق مهما بلغت درجة ذكائه أن يصل إلى كل شىء.. فحتى ابن خلدون الذى نتفق على دهائه ودبلوماسيته الشديدة يترك السلطان لمدة أربعة عشر عاما ولا يقدر على شىء.

ولكى نفهم طبيعة الحياة المصرية فى هذا الوقت علينا أن نتعرف عن قرب إلى المماليك أو أصحاب الحكم الذين أسهب ابن خلدون فى وصف سلوكياتهم ومنهجهم والذين أصبحوا حكاما بعد أن زاد نفوذ الأتراك بعد ضعف الحكم العباسى.

وهنـاك تفسـيرات تاريخيـة كثيرة لأصل نشـأتهم نختـار منها مـا يعتقده أحمـد مختار العبـادى الباحث من كليـة الآداب بجامعة الإسـكندرية من أن أصل نشأتهم كان فى آسـيا بعيدا عن القاهرة، وإن تأثروا فيما بعد بحياتهم على الأرض المصرية.

فالأصل فى وجودهم يعود «للدولة السـامانية التى قامت ما وراء نهـر جيحون واتخذت مدينة بخـارى عاصمة لها وقد أكدت حرص ملوك هذه الدولة برغم أصلهم الفارسـى على الجهاد فى وسـط آسـيا وجـذب المماليك الأتـراك والاهتمام بتربيتهـم وإعدادهم حتى صار معظم جيوشـهم منهم مثال ذلك ما قاله الملك نصر الثانى السـامانى مخاطبا أمراء دولته: «اتخذوا المماليك وأحسـنوا تربيتهم لأن التسلط علـى المماليك من عجز المقدرة وإنما يجب الرفق بهم والتوسـعة على نفقتهم وإطعامهم مما تأكلون».

كذلك أعطانا الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسى وصفا دقيقا باللغة الفارسية لهذا النظام التربوى الذى وضعه السامانيون لمماليكهم فيقول: «إن مماليـك السـامانيين كانوا يرقـون تدريجيا بناء علـى خدماتهم وشجاعتهم وليس اعتمادا على المحسوبية أو الجاه».

وتبدو عملية الترقية نمطية من مملوك صغير يمشـى بجوار سـيده المتطـى صهوة الخيـل ثم الراكب لفـرس دون سـرج إلى أن يتم عامه الخامـس. وبعدها يمنح ملابس أفضل ثم يحصل فى عامه السـابع على خيمة وثلاثة من الرقيق.

وهكذا يختلف كل عام عمن سبقه من الأعوام حتى يصبح أميرا فى سن الخامسة والثلاثين.(٥٣)

إلا إن هذا النظام أضافت إليه مصر فيما بعد. فلا يمكن أن يحسب لهؤلاء المماليك أى وزن سياسى إذا ما أسقطنا تجربتهم العسكرية والسياسية فى مصر.

فبموت الصالح نجم الدين أيوب آخر الحكام الأيوبيين فى ليلة النصف من شعبان عام ٦٤٧هـ. بعد أن دافع عن أرض مصر للنهاية ضد قوات لويس التاسع وقدر للمماليك أو القوة الجديدة التى استعان بها الملك الصالح أن تظهر وأن يحتلوا مكانة عظمى لم تكن متوقعة ليس فقط على الساحة المصرية ولكن على الساحة الإسلامية ككل.

ذلك بأن السلطان المملوكى الحربى قد وصل إلى مساحات لم يتوقعها أحد لهذه القوة الوليدة. والسبب وكما نعزى هو وجود مصر ضمن كيان ملكهم كنقطة انطلاق وقبول أساسية إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

وهكذا انتشر المماليك فى ربوع مصر وتملكوا الجيش وأصبح هناك أمراء العشرة الذين يحكمون عشرة من العسكر وأمراء المائة حتى يصعد النظام إلى «أمير مائة مقدم ألف» ثم أمير طبلخانة ويقول القلقشندى «أعلم أن كل أمير من أمراء المائة أو الطبلخانات سلطان مختصر فى أغلب أحواله... وتوصف البيوت فى دواوين الأمراء بالكريمة، فيقال البيوت الكريمة كما يقال فى بيوت السلطان البيوت الشريفة».(٥٤)

ولهـذا وكما يؤكد د.قاسـم عبده قاسـم فى كتابه «عصر سـلاطين المماليـك» كان طبيعيا أن تكون وظائف الدولة حكرا على أمراء المماليك. وهنا ينبغى أن نشـير إلى حقيقة أن نظام الحكم المملوكى فى مصر وبلاد الشام كان نظاما طبقيا فى علاقاته واتجاهاته.

وقد قسم عبد الرحمن بن خلدون المجتمع فى مصر فى عصر سلاطين المماليك إلى «سـلطان ورعية» وهو ما يصدق فى تقديرنا على بلاد الشـام أيضا. والراجح أن ابن خلدون يقصد بالسـلطان الجهاز المملوكى الحاكم والفئات التى تدور فى فلكه من المصريين.

أمـا الرعية التى يقصدها ابن خلـدون فهم المصريون بجميع فئاتهم وطوائفهم، ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة لأن ذلك كان أبعد ما يكون عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين عبيدا فى طفولتهم.

وفى تصورنا أن المجتمع المصرى والمجتمع الشامى فى عصر سلاطين المماليك كانا مجتمعين يقومان على بناء طبقى حاد.

فثمة طبقة من الحكام العسـكريين لهم كافـة الحقوق والامتيازات ولهـم حـق الإدارة والحكم فضـلا عن أن المـوارد العامة مـن الأراضى الزراعية والمراعى والمصايد والغابات والأحراش والمسطحات المائية كانت بحوزتهم بحكـم القوانين الإقطاعية التى نظمت العلاقات داخل الكيان الإقطاعى العسكرى الذى جسدته دولة سلاطين المماليك».(٥٥)

يبدو أن دولة المماليك كانت قد أخذت فرصتها فى الظهور والتبلور قبل أن يأتى ابن خلدون إلى مصر، بل إن عصر المماليك الجراكسة كان قد أخذ هو الآخر فى البلورة وفرض نفسه على الساحة السياسية. فهؤلاء الجراكسة قد صعدت أسهمهم وأصبحت لهم السلطة بعد المماليك البحرية الأتراك برغم أن هذا الصعود لم يكن فى حسابات المصريين أو المماليك البحرية الذين لم يظنوا فى البداية أن استكثار السلطان المنصور قلاوون من المماليك الجراكسة الذين يسكنون شمال بحر قزوين وشرق البحر الأسود الذين كانوا فى حقيقة الأمر أرخص المماليك ثمنا سوف يؤثر فى معادلة الحكم.

ونضيف إلى هذا وجود مملوك كبرقوق أمكنه أن يوطد لهؤلاء مقعد الحكم. فقد استطاع برقوق بدهائه الاجتماعى والسياسى أن ينفذ إلى السلطة فى مصر من نفس الباب الذى نفذ منه فيما بعد محمد على باشا أو محمد على الكبير. الذى يعتبر نقطة تحول فى صياغة الدولة المصرية الحديثة. الذى يبدو أنه أطلع واستفاد من تجربة برقوق الذى اقتسم السلطة فى مصر بعد مصرع السلطان شعبان مع شخص يدعى بركة.

وكان المصريون قد بلغ بهم الإحساس بالظلم والغبن مبلغا عظيما فى ظل هذا الحكم المملوكى الذى كان يعتنى بتثبيت القوة وإقامة العمائر الإسلامية والحربية بغير الالتفات لمصلحة المصريين أهل مصر الحقيقيين الذين لجأوا فى المقابل إلى سلاح النكتة والسخرية فى مواجهة هؤلاء الحكام فيقولون: «برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة».

حقا صدق المصريون وإن كان من نصب الشبكة على بر مصر هو برقوق وحده الذى استطاع برغم كل هذا العداء المصرى تجاهه والذى عبر عن نفسه فى الأزقة والحوارى المصرية أن يتجاوزه.

فمن البداية لم ييأس ورأى فى الورقة المصرية مكسبا فذهب يعطى للمصريين ويتقرب إليهم كما فعل محمد على باشا بعده بسنوات طويلة فاستجاب المصريون لمبادرته العطوف وقرروا الثورة على منافسه بركة لينفرد برقوق بحكم مصر محمولا على الأكتاف والأحلام المصرية.

إلا إن هذا لم يجعله يتجاهل شرعية الوصول إلى الحكم، فقرر أن يقيم على العرش صبيا كان لايزال فى الحادية عشرة من العمر، كان من الناحية الشرعية يحق له اعتلاء العرش كوسيلة تبلغه غاية ليقتاد بعدها أعوانه الطفل السلطان خارج حدود دار الحكم بالقلعة.

وعلى الجانب الآخر يبدو أن انفراد برقوق بالحكم لم يكن مقبولا أيضا من المماليك الأتراك الذين أحسوا بأن البساط يسحب من تحت أقدامهم. وأن عز الدولة المملوكية فى مصر ينسب لهم فى الأساس، وأنه لا يمكن وبأى حال تسليم مقاليد الحكم للجراكسة الذين كانوا يقفون فى أدنى السلم الاجتماعى المملوكى.

ومع هذا لم تفلح محاولات الناصرى، وعاد برقوق ليحقق ما خافه الأتراك من استيلاء على العرش وهبوط فى سلم التقاليد الفروسية المملوكية حيث لم ينجح الجراكسة فى الحفاظ على رباط الأستاذية الذى كان يجمع المماليك بعضهم ببعض.. فهم ناجحون كمقاتلين ولكن هذا النجاح يبدو نجاحا وقتيا إذا لم يجد له إطارا يدعمه وقاعدة تسمح له بالامتداد.

ولهذا أصبحت الفروسية المملوكية حالات فردية فمن شاء التزم بها ومن شاء تركها.. فالأمر سيان.

ونعـود إلى ابن خلدون الذى قد خبر فى حياته الكثير من الأحداث السياسية، قبل أن يأتى إلى بر مصر، بدأت بعد تعيينه فى. قلم الكتاب» ثم صعوده السريع ليصبح كبير الأمناء بالديوان فى تونس ثم رحيله إلى فاس ودخوله السـجن لعامين، ثم توليه منصب كاتب السـر والإنشـاء والقضاء ثم ذهابه إلى غرناطة وعمله كسـفير يحمل الرسـائل السياسية والثقافية المهمة إلى ملك قشـتالة وغيرها من المحطات السياسـية التى غيرت من حياة ابن خلدون وحياة الآخرين.

أما الاتهـام الذى يواجه به ابن خلدون من أنه رجل عاش لنفسـه ونجاحه وأنه بالفعل لم يكن يقصد أن يقدم للبشرية هذا العلم المفيد الذى غير من تاريخ العلوم الإنسـانية والذى ظهر تحت اسم «علم الاجتماع» فهو اتهام قد لا يكون من المفيد إطلاقه على هذا الرجل الذى اعتبر داهية عصره السياسـية الذى اتقن لعبة السلطان فى كل مكان حل عليه ضيفا.

إذ إن تركيبته الدبلوماسية والعقلية كانت تمنحانه القدرة على شق الصفوف والوقوف فى الصف الأول عند كل سـلطان متقدما على أهل كل بلدة حل عليها ضيفا أو ساكنا.

إلا إن من يقرأ السـيرة الذاتيـة للمفكر الكبير ابن خلدون. والكلمة للكاتب مصطفى نبيل فى كتابه «سـير ذاتية عربية» يلاحظ أن حياته تنقسـم إلى مرحلتين ،المرحلـة الأولى قبل وصولـه إلى مصر، والمرحلة الثانية بعد وصوله إليها.

فهو يروى فى المرحلة الاولى أصله ونسبه وأساتذته والكتب التى قرأها والوظائف التى شغلها واعتزاله وتأليف سفره العظيم كتاب «العبر» ليصل إلى المرحلة الثانية عندما يروى قصة رحيله إلى مصر عام ٧٨٤هـ - ١٣٨٢م. التى قضى فيها ما تبقى من حياته وخاض فيها تجاربه الجديدة فأضاف ونقح كتاب. العبر» وخط كتاب «التعريف» فى ضيعته بالفيوم.

فلم يستطع ابن خلدون طوال حياته الإفلات من تأثير قوتين متضادتين ولعه بالدرس والعلم من جانب وحبه للمنصب والجاه من جانب آخر، بدأ حياته دارسا ثم انتقل إلى العمل والسياسة ووصل إلى أعلى المناصب ولم يستطع أن يتخلى عن العلم.

فكان يعمل فى تدبير الملك صباحا ويلقى محاضراته عندما يأتى المساء ولا نجد فى سيرته الذاتية ما يذكر انهماكه فى شئون الحكم إلا ويعقبها بذكر حنينه إلى الاعتزال وطلب العلم حتى إنه كرر ذلك سبع مرات وهو يروى سيرته الذاتية.

ربما كان ذلك بسبب شغفه الشديد بمعرفة تفاصيل اللعبة السياسية التى لا يعرفها إلا من كان فى قلبها وجاء تنوع تجاربه من خلال عمله السياسى وطبيعة حياته الصاخبة، والتى استخرج من رحيقها سفره القيم. وربما انتقل إليه الحنين للعلم والسياسة من عائلته التى كانت تتقلب حسب قوله. بين رئاسة سلطانية ورئاسة علمية.(٥٦)

المهم أن أيامه المصرية لم تبخل عليه بالكثير من الخبرات التى لم يحصلها فقط من إلقاء دروس بالأزهر الشريف والمدرسة القمحية بالفسطاط والمدرسة الظاهرية فى بين القصرين بحى الجمالية ومدرسة صرغمتش التى كانت درة المدارس فى مصر المحروسة ولكن أيضا من الخبرات السياسية التى قدمتها له هذه الأرض.

ففى أربعة وعشرين عاما هى كل حياة ابن خلدون فى مصر ذهب ابن خلدون إلى أرض الحجاز ليؤدى فريضة الحج وذهب فى رحلة إلى مدينة القدس ثم ذهب فى رحلة ثالثة وهى رحلته الأشهر إلى دمشق حيث التقى تيمورلنك.

والحكاية أن تيمورلنك قائد التتار كان يقف عند أبواب مصر يريدها، ويمنعه عنها قوة برقوق ومماليكه التى وقفت كحائل دون تنفيذ مخططاته.

وعند موت برقوق شعر تيمورلنك بأن الفرصة الذهبية للاستيلاء على مصر قد حانت. فمن قبل لم يستطع التتار التقدم إلى مصر بفضل مقاومة قطز وبيبرس. كما أن التتار الأوائل الذين حاولوا من قبل الاستيلاء على مصر لم يكونوا من المسلمين. وانسحاب قوات المماليك قد جعلت الجميع ينتظر من يقوم بالمبادرة للدفاع عن مصر ودرء خطر التتار أولا عن الأراضى الدمشقية التى كانت خط الدفاع الأول عن مصر.

وهكذا لم يجد القضاة والفقهاء ملجأ سوى طلب الأمان من تيمورلنك وتدخل ابن خلدون فى الأمر بعد أن فرض عليه الواقع أن يتدخل فتدلى

من السـور بحبل وأبلغ حاشـية تيمورلنك بوجوده فقابله تيمور الذى أطلـق عليه ابن خلـدون لقب «الأثير الأعظم» ليلعـب ابن خلدون لعبة السـلطان والدبلوماسـية الناعمة التى تمكنه من الوصول إلى كل غاياته والتى كانت فى الأصل السـبب الرئيسى فى اتهامه بإتقان لعبة النفاق السـلطانى التى يعرفها الكثير ممن عاشـوا فى رحاب بلاط السـلاطين والملوك فى كل عصر.

ويستطيع ابن خلدون أن يقنع تيمورلنك بما يريد ويجد فى احترامه للعلماء أرضية جاهزة، بعـد أن يتأكد أن هذا المحارب يحترم العلماء والفقهـاء حتى إن جنده عندما كانـوا ينهبون مدينة أصفهان الإيرانية نهاهم عن التعرض للفقهاء.

فقد كان هناك نقطة تحسب لتيمور وفى الوقت نفسه تحسب عليه وهـو أنـه جعل وضع الترك متقدمـا على النظم المغوليـة والصينية فى منطقة آسيا الوسطى لأنه كان مسلما، إلا إنه فى الوقت نفسه لم يستطع أن يتخلـص من فكرة الغازى الذى يحطم كل شـىء فـى طريقه ويقتلع الأخضر واليابس فى سبيل تحقيق فكرة السيطرة.

فما أراده لم يكن إلا تحريفا لما فعله من قبل جنكيز خان الذى كان ووفقا للتصور المغولى فاتح العالم ولكن كيف كان هذا العالم وما ثمن هذا الفتح؟

هذا سؤال يجيب عنه كل من يأتى إلى الدنيا وضمن قوانينه الشخصية الاقتتال من أجل مبدأ أو على النقيض الاقتتال من أجل مكسب.

ومـن هذا المنطلـق كان تيمورلنك يرى إنه جاء لهـذه البلاد فاتحا ومخلصا لها من قبضة السـلطان الغاشمة ولهذا لم يكن يلتفت كثيرا إلى آلاف القتلـى الذين كان يتعثر جواده الجامح فى جثثهم. فموت هؤلاء رحمة وتخليص لهم من حياة صعبة قد عاشوها فى ظل السلطان الظالم .

ولاعجب فى هذا فهى فكرة متكررة فى تاريخ الأمم وليست بجديدة وتُستدعى فى كل عصر وزمان ومكان.

فكمـا يقـول ابن خلـدون: «فزدت فى نفسـى كلامـا أخاطبه به وأتلطف بتنظيم أحواله وملكه يا مولانا الأمير لقد شـرفت بحضورى ملـك الأنام، وأحييـت بتواريخى ما مات لهم من الأيـام ورأيت من الملوك فلانا وفلانا وشـهدت مشارق الأرض ومغاربها وخالطت فى كل بقعة أميرها ونائبها ولكن لله المنة. إذ امتد بى زمانى ومنَّ الله على بأن أحيانى حتى رأيت من هو الملك فى الحقيقة والمسـلك شريعة السلطنة علـى الطريقة فإن كان طعام الملـوك يؤكل لدفع التلـف فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولى الفخر والشرف فاهتز تيمور عجبا وكاد يرقص طربا وأقبل يوجه الخطاب إليه وعول فى ذلك دون الكل عليه، وسأله عن ملوك الغرب وأخبارها وأيام دولها وآثارها، فقص عليه من ذلك ما خرع عقله وخلب لبه وسلبه». (٥٧)

وبهذا الأسـلوب وجد الجميع مآخذ على ابن خلـدون لهذا التودد تجاه رجل يراه الناس متوحشـا همجيا محطما للقواعد الحضارية التى تحكم اللعبة السياسية.

فمن وجهة النظر الأخلاقية يرى المؤرخون أنه لم يكن لابن خلدون أن يطلق على تيمور لنك لقب «الأثير الأعظم» أو أن يقدم هدايا كالمصحف الشريف وسجادة الصلاة ونسخة من قصيدة البردة للبوصيرى مع بعض الحلويات المصرية.

فتيمور لنك وبأى حال لا يمكن أن يكون سلطان الدنيا ولا هو الشخص الذى ينتظره عالم كابن خلدون لأكثر من أربعين عاما لكى يقابله.

فهل كان يستوجب من ابن خلدون إعلان كل هذا التودد والنفاق بتشبيهه بمبعوث العناية الإلهية لتخليص الشعوب من ظلم حكامها!.

فتيمور قد دخل دمشق برغم كل شىء ونكل بأهلها فى وقت كان ابن خلدون يحكى له عن بلاده وأصل عائلته بالمغرب. وهو ما يجعل البعض يرى أن ما حدث بين تيمور وابن خلدون يحسب للأخير برغم كل شىء لأنه عرف كيف يتعامل مع هذا الهمجى الذى تصور أن الناس سوف تقبله طالما دخل فى حظيرة الإسلام وسوف تغفر له توسعاته التى اعتبرت مذابح وحروبا لم ينج منها شيخ ولا طفل ولا امرأة.

ويستمر ابن خلدون فى الحكى فيقول: فزدت فى نفسى كلاما أخاطبه به, وأتلطف بتنظيم أحواله وملكه وهو يعرف ماذا جرى عندما سأل تيمور العلماء والفقهاء فى حلب قتل منا ومنكم أمس فأى فريقين هم الشهداء؟ قتلانا أم قتلاكم؟ فأجاب أحد علماء حلب هذا سؤال سئل عنه النبى ﷺ وأجاب عندما قدم أعرابى إلى الرسول ﷺ وقال رسول الله إن الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليرى مكانه فأينا فى سبيل الله؟

فقال الرسـول ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو شهيد.
فقال تيمور: جيد جيد.(٥٨)

المهم أن هذه المهمة قد انتهت كما ينتهى كل شـىء فى الحياة سواء كان حلـوا أو مرا، وأن الأمر كان كلـه صعبا حتى إنه فى رحلة العودة تعرض ابن خلدون للسرقة والنهب وهو فى طريقة إلى بر مصر.

والمهم أيضا أن هذا الخطر قد تداركه فرج بن برقوق عندما اسـتطاع أن ينهى العداء بينه وبين تيمور بوصولهما إلى حل مقنع ولكلمة سواء بينهما.

وأمـا ابن خلدون فقد اسـتمرت حياته المصرية تسـير بنعومة فلم تتوقـف الحياة به كثيرا عنـد مواقف فارقة حتى وافته المنية فى مصر فى السـادس والعشـرين من رمضان عام ٨٠٨هـ. وهو ما وافق السـادس عشـر من مارس عام ١٤٠٦م ليدفن فى مقـبرة الصوفية عند باب النصر بالقاهرة التاريخية.

وبمـرور الوقت وصل ابن خلـدون إلى نفس الحالة مـن التفوق فى أواخر أيامه فى مصر مثلما حدث للإمام الشافعى وآخرين غيره.. فلكى تصـل إلى درجـة مقبولة من فهـم الحياة لابد لـك أن تلتقى بالمصريين وتعيش فى بر مصر... مجرد فكرة مصرية.

❑❑❑

زوابع أمشير

نحن الآن فـى زمن القرن الرابع الهجرى وتحديدا فى عام ٣٤٦هـ وفى مدينة الفسـطاط التى كانت أول مستقر للمسلمين فى مصر عندما وفد إليها وللمرة الأولى أكبر شـعراء العربية أبوالطيب المتنبى لتحقيق طموح لم يقدر عليه فى غير بر مصر.

فهذا ما توقعه وحلم به ولكن لابد أولا قبل أن ندخل فى لب الحكاية أن نفهم أن الأحداث تدور بعد فترة ليسـت بالقصيرة من نشـأة مدينة الفسطاط أول حاضرة للمسلمين على أرض مصر والتى اختارها عمرو بن العاص لتكون أول عاصمة.

فقد انتهت معارك السـيف الفاتحة لتبدأ معارك أخرى للتعلم بين الأدباء والشعراء ودخول شاعر كالمتنبى فى هذا التوقيت بالتأكيد سوف يشعل معارك أدبية وفكرية لم تكن تخطر على بال.

وإن كان دخوله تحت حماية الإخشـيد يثـير هو الآخر العديد من التساؤلات فممن كان المتنبى يخاف؟

أوليس هو الشـاعر الذى تهتز له الدواوين والمجالس وهو صاحب القامة الشـعرية التى لم يسـتطع أحـد من قبله أو بعـده أن يطاولها؟ أوليست أيامه هى أفضل أيام الشعر العربى؟

خواطر وتساؤلات إلا أن الحقيقة تبدو فى الكثير من الأحيان أغرب من الخيال. فالمتنبى من حال الأصل هو ابن بيئة فقيرة وكان والده يعمل سقاء فى العراق .وكانت كل متعته فى الحياة تكمن فى التنقل بين مجالس الأدباء والعلماء.

وبرغم بدايته المتمردة على السلطة ورغبته فى العيش مع القرامطة الذين اعتبروا من الخارجين على سياسة ونظام الحكم فى الدولة العباسية فإنه بعد فترة ليست بالبعيدة يصبح الشاعر المادح فى القصور والديار، وهو ليس بالشىء المستغرب فى شخصية المتنبى التى كانت مليئة بالعديد من المتناقضات.

وتتغير حياته المليئة بالأحداث فيذهب إلى الشام ويسجنه أمير حمص بسبب وشاية اعتبر من أجلها أن حظه من أنكد الحظوظ. إلا إنه انطلق بعدها ليدخل بلاط سيف الدولة الحمدانى وليكتب قصيدته الدالية الشهيرة التى يقول فى مطلعها:

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الضرب فى العدا

ويقال إن المتنبى بشعره قد وصل فى بلاط سيف الدولة لقدر لم يبلغه شاعر، وإنه قد وصل إلى أعلى قمة فى الشعر العربى جعلته يتجاوز بكلماته كل الأسقف والحوائط بلا اكتراث. فالمديح قوى ربما أقوى بكثير من أن نضع له حدودا والمتنبى لا يقف عند حدود شخص ولا حدود باب.

فلما جاءت ليلة من الليالى أقصته فيها وشـايات القصر كان الرحيل إلى مصر بابا آخر يطرق، وربما ظن البعض أن المتنبى يأتى إلى الفسـطاط ليعارض وينافس الشعراء فى الليالى المقمرة فى جلساتهم الأدبية بمكان غير بعيـد عن النيل ليحكم علـى قصائد "الديارات" وهـو الفن الذى أبدعـه المصريون، حيث كان الشـعراء يخرجـون إلى الديار المحيطة بالفسطاط لينشـدوا شـعرا مصريا خالصا وليحكموا على الأيام المصرية والنيـل والقصب والقمح وزمن التحاريق والفيضان وبرودة طوبة وزوابع أمشير أحد أشهر فصول الزراعة المصرية.

إلا أن مجىء المتنبى بكل ما يحمله من اعتداد بنفسه لم يكن للدخول فى منافسـة مع هذا ولا ذاك فكل مـا أراد ولاية يحكمها ويحصل على زعامتها كما حصل على زعامة الشعر، خاصة أن الرياح هادئة فى مصر والحكم رشيد يقدر الشعر والشعراء.

فقد كان أمراء الدولة الإخشيدية فى مصر يحبون الشعر، ومنهم أبو بكر محمد بن طغج الإخشـيد صاحب المعرفة بالعربية والفقه والمؤلفات الكثيرة وأنورجور بن الإخشـيد صديق سيبويه المصرى. وأخيرا كافور الإخشـيدى العبد الذى حكم مصر وأمر بعشرين ألف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية.

فهكـذا يتحقق المراد وتأتى الرياح بما تشـتهى السـفن، ويحصل المتنبى على ما يريد، فيذهب إلى كافور مادحا ويقف أمامه ليقول:

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله فإنى أغنى منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار فى زماننا ونفسى على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ويقف المتنبى لينتظر الرد والولاية التى تمناها من أعماق قلبه.. إلا أن انتظاره لا يطول فكافور يسمعه قوله ورأيه صريحا..

فكافور يرفض توليته ولاية، لأن المتنبى على ما هو عليه يحدث نفسه بما يحدث ويتصور فى نفسه العزة. فإن أعطاه الولاية التى يحلم بها من يطيقه من الناس؟!!

ويقع كلام كافور حسرة على قلب المتنبى الذى تمنى وتمنى وفتحت له أحلامه الأبواب. إلا أن لحظات وربما ساعات الحسرة لم تلبث أن انقلبت لإحساس بأنه غدر به وأهينت كرامته فلا يجد أمامه إلا موهبته لترد عنه الإساءة. فيقف بعيدا عن أبواب كافور ليقول:

لاتشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن يسيئنى فيه عبد وهو محمود

ويقول أيضا:

تظن ابتساماتى رجاء وغبطة وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
وإنك لا تدرى ألونك أسود من الجهل أم قد صار أبيض صافيا؟
ولولا فضول الناس جئتك مادحا بما كنت فى سرى به لك هاجيا

ويترك المتنبى مصر ساخطا.. فكافور وإن بلغ من العلم ما بلغ فلم يكن يحمل من شيمة العطاء التى اعتقدها المتنبى فيه حتى وإن كانت مائدته تحمل فى اليوم كما يقول المؤرخ أبو المحاسن مائة خروف كبير ومائة خروف صغير ومائة وخمسين إوزة وخمسمائة دجاجة وألف زوج من الحمام ومائة صحن من الحلوى سعة كل صحن عشرة أرطال إلا أن كل هذا لا يغير من طباعه شيئا.

أما مجتمع الفسطاط الذى لم يكترث المتنبى به كثيرا أمام طموحاته فقد رفضه هو الآخر عندما نقده سيبويه المصرى على مرأى من الجميع، فقال إنه لا يحسن اختيار كلمات أشعاره والدليل أنه يقول:

من نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد

فكان من الأفضل أن يقول:

من نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من مداراته بد

ويخرج المتنبى من مصر ولكن لا شىء يتغير من عاداته ولا من عادات كافور الذى هجاه. فبعد مصر يذهب ليمدح ابن العميد فى بلاد فارس ثم عضد الدولة ثم المعز لدين الله الفاطمى.

ومن جهته لا يتغير كافور الذى لم يحب شاعرا كما أحب الشاعر محمد عاصم الذى كتب فيه مادحا بعد أن ضرب زلزال عظيم مصر.

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها لكنها رقصت من عدله طربا

صحيح أن محمد عاصم لا يساوى أو يوازى شيئا فى قامة المتنبى ولكن الناس فيما يعشقون مذاهب، والمشكلة أن المتنبى قد نسى أن كل ما على التراب إلى التراب. فهو لم يفهم شيئا من الحياة فى بر مصر، ولم يتصور أن ما يفعله كافور معه مجرد زوابع أمشير التى تواكب أخصب فصول الزراعة المصرية.

فربما لو كان قد انتظر لتغير الحال..ولكن ماذا نفعل للمتنبى الذى لم يفهم مصر ولا برد طوبة وزوابع أمشير؟

ويبقى السؤال الذى يفرض نفسه... وهو ما الذى كان سيحدث لو حصل المتنبى على ولاية كما كان يحلم؟

هل كان سيترك الشعر فى سبيل السياسة وشئون الحكم ليرى عدوا له ما من صداقته بد؟

المهم إن المتنبى بقى شاعرا وإن مصر كانت إحدى تجاربه وإن حياته كانت غريبة وانتهت بحادث غامض كما بدأت.

والمهم أيضا أن حكاية كافور قد انتهت نهاية أخرى، فبعد أن ترك المتنبى مصر جاء الدور على كافور.

فهذا العبد الذى بدأت قصته عندما اشتراه أبو بكر بن طغج الإخشيد من أحد البيوت المصرية وترك له الباب مفتوحا على مصراعيه لكى يصعد فى المناصب وينال ثقته الكاملة حتى استطاع أن يصل إلى سدة الحكم المصرى كانت له قصة عجيبة.

فبعد أن مات أبو بكر الإخشيد الذى آلت إليه مصر فى عصر مضطرب حاول سيف الدولة الحمدانى أن يأتى إلى البلاد غازيا ولكن كافور انتصر عليه انتصارا أجبره على التراجع مرة أخرى إلى حدود بلاده.

واستطاع كافور فيما استطاع أن يقنع الخليفة العباسى فى بغداد – الذى كان قد رضى أسلافه بوجود دويلات منفردة داخل كيان الدولة الإسلامية. بوجود الابن أنجور الإخشيدى على رأس مصر تحت رعاية الأستاذ كافور لصغر سنه. ليصبح للصغير القدرة والمصداقية على حكم مصر وبلاد الشام ومكة المكرمة والمدينة المنورة.

إلا إن الصغير لابد له أن يكبر وأن يضيق بسلطة العبد كافور الذى لا يصح له البقاء على عرش مصر ليمنح ويمنع. فيقرر الخروج إليه فى مواجهة حربية إلا إن عائلته وخاصة أمه تخشى عليه من الفشل أمام الرجل الذى أصبح أستاذا وأصبحت الأمور فى مصر ملك يمينه فيقررا التصالح على أن ينفرد الأستاذ بالحكم مقابل أن يحتفظ أنجور بحياته، وهو ما عجل بموت أنجور الذى لا يعرف إلى الآن إذا ما كان بالفعل قد مات كمدا أم أن العبد كافور قد أعد له هذه النهاية بدس السم فى طعامه.

إلا إن الأمر لا يخلو من تتابعات... فبموت أنجور لا يخلو كرسى السلطة من الأخ الأصغر لأنجور وهو أبو الحسن على بن الإخشيد الذى قد أصابه هو الآخر نفس اللعنة التى أصابت أخاه فأصبح وبفضل مؤامرات

الأستاذ أسيرا فى قصره مقابل أربعمائة ألف دينار يتقاضاها سنويا على أن يترك له الخيار هذه المرة فى إنفاق المبلغ كاملا بالطريقة التى يرغبها، وأن يمنح من يمنح ويمنع عمن يمنع.

ويصاب أبو الحسن بداء الموت السريع مثل أخيه لأسباب غير مفهومة. وتبدو عائلة الإخشيد الذى كان يوما من أعظم القادة فى الدولة الإسلامية عائلة تتساقط فروعها بطريقة سريعة لدرجة أن شبابها قد يعاجله الموت وهو مازال فى العشرينيات أو الثلاثينيات من العمر فى أكبر تقدير.

ولا يجد كافور فى نفسه حرجا فى أن يطلب من الخليفة العباسى أن يعينه واليا على مصر التى عدمت حكامها، ويستجيب الخليفة لطلب كافور الذى تحمل كل هذه الأحزان وحده مع أبناء الإخشيد إلا أن القرامطة الذين ينظرون إلى الأمر من طرف خفى لم يكونوا ليفوتوا فرصة الانقضاض على بلاد الشام. كما أنهم وكما يقول د/ حسن إبراهيم حسن فى كتابه «تاريخ الدولة الفاطمية» قد قبضوا على قافلة مصرية كبيرة تحتوى على عشرين ألف جمل كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج فى عام ٣٥٥هـ. كما وقعت بمصر زلازل مروعة وشبت نيران هائلة دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل الفسطاط، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة وعاث فى البلاد فسادا فى البلاد الواقعة بين الشلال الأول وأخميم فأحرق بعض المدن وقتل أهلها بالسيف ونهب أموالهم.

وأما أشد هذه الأهوال فكان انخفاض ماء النيل. ففى أواخر عهد الدولة الإخشيدية انخفض النيل انخفاضا دام تسع سنين فى الفترة ما بين عامى ٣٥١ و٣٦٠هـ وبقى حتى أيام الفاطميين، وقد قاست البلاد الأمّرين مما أصابها من القحط والوباء واشتد الغلاء وندر وجود القمح، وفشا الموت بحالة عجز الناس معه عن تكفين الموتى ودفنهم.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن عدد الموتى بلغ ستمائة ألف، وأنه كان يلقى بجثثهم فى النيل لكثرتها. وقد ولد انخفاض النيل اضطراب الأعمال الحكومية وانتشار المجاعات والأوبئة. فنهبت المحاصيل وعم السلب والنهب، حتى إن كافور لم يستطع أن يدفع أرزاق الجند – وكانوا من الأتراك والروم. فثاروا عليه، ولعل ذلك مما دفع لينبول فى كتابه تاريخ مصر فى العصور الوسطى

إلى القول بأن «كافور كان بلا شك خادما موفقا أكثر منه قائدا ناجحا».

History of Egypt in the Middle Ages

ويبدو أن رأى ليبنول فى هذا الموقع حصيف، حيث لا يختلف اثنان على أن كافور قد بدا وخاصة فى نهاية حياته خادما أكثر منه قائدا ناجحا.

فالكثير من الشواهد تؤكد ذلك خاصة إنه قد تحول بولائه شطر المغرب العربى. فقد ترك حظيرة الدولة العباسية التى أعطته فرصته الكبرى فى الانفراد بالحكم لمدة تزيد على العامين بعد أن رأى قوة الفاطميين، وإن كان التاريخ يذكر أنه استمر فعليا ولأكثر من عشرين عاما يحكم مصر وإن كان هذا الحكم متدثرا بحكم الإخشيديين.

فلم يكن يخفى على أحد فى بر مصر أو فى أرض من بلاد المسلمين أن الرجل يحكم مصر بمهارة وسلاسة لسنوات طويلة. وأما مبعث هذه المهارة فلأنه لم يستطع فقط أن يتولى حكم مصر ولكنه أيضا نجح فى إدارة الشئون المصرية.

فالرجل لم يسمع فى عهده صوتا عاليا يطالبه بالرحيل بالمنطق المصرى ولم يسمع فى عصره أكثر من نكات مصرية على هذا العبد الذى ملك أرض مصر وتفوق على سادته.

فكما يقول أبو المحاسن فى «النجوم الزاهرة» فقد زاد ملكه على ملك مولاه الإخشيد وكان كثير الخلع والهبات، خبيرا بالسياسة، فطنا ذكيا، جيد العقل داهية. كان يهادن صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر(٥٩).

ولا يعرف إلى الآن كيف أدار كافور الأمر ولا كيف أتقن لعبة السلطان وسط هذه الأمواج الهادرة. فخطر القرامطة الذين يريدون الانقضاض على الشام والمجاعات التى هددت مصر وحالة التحاريق والجدب الشديد الذى أصاب الأرض تقف جميعا فى خندق واحد ضد حكمه .إلا إن الأخطر فى رأيى كان خلع عباءة السلطان العباسى وارتدائه عباءة الحكم الفاطمى.

فقد كانت محاولة المعز لدين الله الفاطمى غزو مصر هى القشة التى قصمت ظهر البعير. وإن كان ما حدث حقا أن كافور قد نجح فى

البداية أن يستدفع هذا الخطر الفاطمى وأن يلاقى عدوه عند الواحات ولكنه بعد ذلك عاد وقبل الدعوات الفاطمية ومحاولات الاسترضاء التى جعلته يدخل فى الحظيرة الفاطمية وبكامل إرادته، ولكن هل كانت هذه إرادته حقا.. نشك فى ذلك ولكنها بصيرة رجل السياسة الحاذق الذى يقدر قوة العدو والصديق.

فبغداد تعجز عن الدفاع عن مصر أمام هجمات البيزنطينيين على الولايات العباسية والفاطميون كقوة وليدة لا تزال على فطرة الحداثة العسكرية وأرض مصر مفتوحة أمام طموحاتهم.

ومصر لا تستطيع أن تدافع عن الدولة العباسية لتتولى الأخيرة الدفاع عن الأراضى المصرية. والمنطق والعقل والسياسة يرجحون كفة الفاطميين الذين لا يعانون الانقسام بل يعانون من فكرة الخوف من عدم التوسع والوصول إلى مصر لتكون درة العرش الفاطمى.

ويرحل كافور ليس فقط عن كرسى الحكم ولكنه يرحل هذه المرة عن الحياة كلها.

وأما مصر فهذا قدرها فهى تصمد أمام أعتى المحن وكأنها «رقصت من عدله طربا» كما قال شاعره المفضل محمد عاصم.. وذهب المتنبى وكافور كل مع حكايته.. ولم يعد المصريون يرقصون طربا من عدل كافور أو من أبيات المتنبى...!

❑❑❑

نصف كوب ممتلئ

الى

الآن يذكـر المصريـون أنه منـذ أكثر من أربعين عاما ..شـهدت الأراضى المصرية آخر موسم للفيضان.

وموسم الفيضان فى بر مصر كان هو البطل لكل الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فلم يكن نهر النيل قد روضه وجود السد العالى بعد. وكان المشـهد التقليدى هو مشهد الاجتياح لمياه النهر لكل القرى والنجوع المصرية.

فـلا يذكر التاريخ أن أحدا قد اسـتطاع أن يقف فى وجه هذا النهر الذى ما كان يعلن عن بدء فيضانه حتى يجتاح كل شـىء فى طريقه من أسوان إلى القاهرة.

فقد تتغير العصور والوجوه.. ويتغير الحاكم والمحكوم.. ولا تتغير مصر ولا نيلها.

واسـتمر هذا الحال ببر مصر حتى وجد النهر وبشـكل فجائى من يروضه ومن يحدد حركته التى كانت ميزان القوة فى البلاد.

فالنيل يشـبه إلى حد كبير الحياة المصرية التى كانت تشـهد تتابع أيام اليسر والعسر..وكانت أيضا تشهد أيام الفيضان والتحاريق.

فصحيح أن المصريين كانـوا يخافون من ثورة القادم من جبال القمر ومـن هضبة أثيوبيا التى تشـبه الجنة.. إلا إنهم كانـوا أيضا يخافون

من أيام التحاريق حتى لا يشـهدوا الأراضى المصرية وهى شراقى حين تتكسـر قطع الطين الفخارى وتتيبس وترفـض أن تمنح الزرع والضرع فرصة الاستمرار.

والناس بين فيضان وتحاريق يحاولون أن يسـيروا حياتهم. فإيقاع الحيـاة كان يفرض هـذا التناوب بين القحط والنمـاء، وإن كانت فكرة السـيطرة على النهر فيما يبدو كانت فى عقـل الناس فى بر مصر منذ عهد الفراعنة. فالسـيطرة على هذا الثائر وتطويعه داخل قوالب الحياة كانت مهمة اشتغل بها الكثيرون.

ولهذا شيد القدماء السـدود وأقاموا الترع والقنوات على طول الخط المصرى لنهر النيل. فلم يتيسـر وقتها سوى هذا الحل المنطقى لمواجهة غضبـة النهر. وإن ظلت أيـام التحاريق الطويلة والثقيلة هى مشـكلة بـلا حل قاطع. والدليل على هذا هو عـدد المجاعات وحالات الانهيار الاجتماعى والاقتصادى التى تسـبب فيها اسـتجداء الرزق وانحسـار النهر من القنوات والترع .

وهو ما يجعل معجزة سـيدنا يوسـف عليه السلام لا تكمن فقط فى قدرته على تفسـير رؤيا الملك ولكن فى قدرته على تسيير الحياة فى بر مصر أثناء السـبع العجاف. ففتوى يوسـف هى المحور الأساسى لشد الانتباه إلى دعوته للتوحيد.

وبرغم أن هذا المشـهد الـذى تعودته مصر لسـنوات أصعب من أن تحصى قد اختفـى تقريبا منذ حوالى الأربعين عاما، فهذه القصة تفيد بأنه كان من الممكن أن تنساه مصر قبل هذا بزمن طويل.

والقصة قد حدثت بكل تفاصيلها فى العصر الفاطمى وهو الزمن الذى حدثت فيه الكثير من المتغيرات فى بر مصر، وبطلها هو العالم الفذ الحسن أبوعلى الحسن ابن الهيثم الذى يتوقف التاريخ أمامه ويتمهل حين يذكر فضل العلماء العرب والمسلمين على تاريخ العلوم فى العالم، والذى كان أحد الثلاثة الأعلام الأفذاذ من علماء النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى وهم البيرونى وابن سينا وابن الهيثم. وهو الذى قال عنه جورج سارتون وهو أحد أعظم مؤرخى العلم إنه أعظم عالم فيزيقى مسلم، وأحد كبار العلماء الذين بحثوا فى البصريات فى جميع العصور.

وقد كان فوق ذلك فلكيا ورياضيا وطبيبا وله شروح على مؤلفات أرسطوطاليس وجالينوس والترجمة اللاتينية لكتابه «المناظير» كانت لها أثر عظيم على العلم فى الغرب خصوصا على روجير بيكون وكبلر وفيها يتجلى الرقى العظيم الذى وصلت إليه الطرق التجريبية.

ويذكر جوزيف هل فى مؤلفه عن الحضارة الإسلامية قائلا إن ابن الهيثم قد اتجه بأبحاثه إلى دراسة الحجرة المظلمة. وربما كان روجير بيكون أول من تمكن من الانتفاع بها، فلابن الهيثم فضل التفريق بين الظل وشبه الظل.

وقال عنه كاجورى فى تاريخ الفيزيقا: كان أول طبيب وصف العين وصفا مسهبا، وقد استمد معلوماته فى وصف العين من مؤلفات فى التشريح، وكان هو وبعض معاصريه من علماء العرب وبعض العلماء

المتأخرين منهم يعارضون رأى إقليدس والأفلاطونيين القائل بإن الإبصار يحدث عن أشعة تخرج من العين وكانوا يؤيدون رأى ديموقريطس وأرسطو القائل بأن السبب هو صدور أشعة من الجسم نفسه.(٦٠)

وقبل أن يأخذنا الحديث عن هذا العالم الذى ضاعت الكثير من أبحاثه وثمار فكره، فلابد أولا أن نتوقف عند فكرته لبناء سد كبير يقى مصر من ويلات اجتياح النهر لأرضها وزرعها فى زمن الفيضان.

فقصته فى مصر تبدأ مع هذه الفكرة التى جعلته يوطن قدميه فى مصر التى شهدت سنوات شبابه وكهولته وشيخوخته بل وانطفاء شمعة حياته.

فقد ولد ابن الهيثم فى زمن يعتبر من أغنى عصور الحضارة الإسلامية وجنى ثمار التفاعل بين الثقافات. وهو عصر ملىء بالتيارات وكما يحمد له هذا التبادل والانفتاح الحضارى الكبير فهو عصر يشينه كثرة التيارات الاجتماعية التى دخلت فى المجتمعات الإسلامية كالشعوبية والأمراض الاجتماعية الأخرى التى عانى منها المجتمع الذى دخلت فيه كل العناصر والشعوب والأفكار من كل الأبواب. فمن الطبيعى أن يدخل من الأبواب الصالح والطالح، خاصة إذا كانت هذه الأبواب مفتوحة على مصراعيها.

فابن الهيثم شهد عند أول نشأته عصرا صاخبا بجلبة الحركة العلمية المتدفقة، والحركة المذهبية فى الدين، وما سببته من ديناميكية التصادم بين الفرق المتنابذة، تصادما قد تولد من رواسب

الحضارات الهامدة التى احتضنتها الحضارة الإسلامية. فكان أن تمت بينهما اتصالات فى البعدين المكانى والزمانى.(٦١)

وهكذا كانت البصرة أول موطئ لقدم ابن الهيثم الذى احتواه هذا العصر الهادر الأمواج والذى يذكرنا بما رصده الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى فى رسالته عن الشاعر أبى العلاء المعرى الذى ولد وتربى وعاش فى ظروف مشابهة.. وهى الظروف التى تجعلنا نتوقف طويلا أمام فكرة الحضارات التى تضع دعائمها فى أصعب الظروف اعتمادا على إنجازات مجموعة من البشر أبوا أن يتركوا الدنيا دون أن يضيفوا إليها.

فقد كان من المنطقى والطبيعى بل والمتاح فى عصر ابن الهيثم أن يقرأ العامة والدارسون علوم الفلسفة والمنطق والرياضيات والطب والفلك وخاصة بعد أن يسرت حركة الترجمة فى عصره والعصور التى سبقته حركة العلم والأدب. كما لم تكن هناك حدود تقف فى طريق من يريد أن يبدع سوى بعض النوازع الإنسانية السلبية المتمثلة فى الحسد والكيد للآخرين هو ما عرفه ابن الهيثم منذ اختار أن يغرق نفسه فى بحر العلم الواسع.

فرغم أنه لم يكن يوما من طالبى المجد ولا المال إلا إنه لم يسلم فى عمله بالبصرة ككاتب حسابات بديوان البصرة حيث أراد زملاؤه أن يتخلصوا من مهارته العالية التى تسبب لهم مواجهات ثقيلة مع النفس. فالفاشل يعتقد فى قرارة نفسه أن من يريد التقدم والنجاح إنما يفعل هذا ليقلل من فرصه فى اعتلاء المناصب.

فلكى ينجح الفاشل لابد أن يختفى المجتهد. ولهذا ذهبوا إلى أمير البصرة ليخبروه بأن ابن الهيثم هو أمهر مهندس قصور لكى يزيحوه عن طريقهم.

وهكذا اتضح لابن الهيثم أن الحياة فى البصرة لا تتسع لأمثاله، فقرر أن يتجه إلى بغداد ليكسب عيشه من الكتب التى كان ينسخها للوراقين. فقد كان كل ما يريد فى هذه الدنيا هو الإخلاص للعلم. ولهذا لم تكن هناك متعة تذكر فى هذا الوطن الجديد سوى الذهاب إلى مكتبة «بيت الحكمة» فى بغداد.

إلا إن شهرته سبقته ولم يكن بالنسبة لأهل بغداد أكثر من ضيف ثقيل. فهو مؤلف كتاب «الهيئة» الذى كان يتحدث فيه عن الأفلاك والكواكب والذى كان فى رأى أحد خطباء المساجد مدعاة للفسق.

فقد خيل للرجل أن ابن الهيثم بمحاولته كشف حجب العلم يكون قد وقع فى الشرك الأكبر ودخل فى دائرة المحظورات الدينية بعد أن تنبأ بالغيب.

ويختار الله تعالى لابن الهيثم أن يرحل عن العراق ليتجه إلى الشام التى ينزل فى ضيافة أحد أمرائها المثقفين الذى اعتبر ابن الهيثم ضيافته بمثابة استراحة المحارب.

فقد نزل ضيفا على بيته ومكتبته لا على ملكه الذى لم يرد أن يشاركه فيه فرفض كل عروض الأمير المثقف بالإبقاء عليه مقابل مال وسلطة وهما أكبر ما يطمح فيه أى إنسان فى هذه الدنيا.

وتبدو تجربة الشام ثرية فى حد ذاتها، فمن خلالها يعرف ابن الهيثم الكثير عن بر مصر فقد حدثه الأمير عن مكتبة دار الحكمة بمصر، وما فيها من قراء وفقهاء، ونحاة ولغويين، ومفسرين ومحدثين ومنجمين.

ويسمع عن مكتبة دار العلم الملحقة بها، وفيها مائة وثمانون ألف كتاب غير مكررة العنوان فى علوم الدنيا: الفلسفة والمنطق والأخلاق، والطبيعيات والرياضيات، والفلك والطب، وعرف أن قيم هذه المكتبة اسمه: أبو الحسن الشابشتى.

وتمنى أن يذهب إلى مصر يوما، ويعيش بالقاهرة الفاطمية ما بقى له من العمر، يجلس إلى علمائها ويقرأ فى مكتباتها. ومن يرى؟

قد يلحقه الخليفة الحاكم بأمر الله عضوا بمجلس العلماء بدار العلم فى قاعتها الخضراء.

وأيقن أبو على أنه سيقضى عمره كله آمنا على نفسه وعلمه فى بلاد يحكمها الفاطميون.(٦٢)

مرة أخرى يفكر ابن الهيثم فى الرحيل وكأن التنقل بين البلاد فرض عليه كما كان الحال بالنسبة للإمام الشافعى الذى مازال مسجده يحمل على قبته صورة سفينة كرمز لترحال هذا الإمام الكبير الذى جاب العالم الإسلامى منذ ميلاده فى غزة وحتى رحيله عن الحياة ودفنه فى أرض مصر المباركة. فمصر وبكل الحسابات كانت تملك مساحة ثابتة فى عقل الكثير من رجال الفكر والعلم والرحالة فى كل الأزمان.

ولهـذا لم يكن حديث ابـن الهيثم مع الأمير حـول مصر أكثر من تحسـس لأحوال الحياة بها، خاصة أن الفاطميين فى هذا الوقت كانوا مـن محبى العلم الذى كان يعلو صوته على صوت الصراعات والمؤامرات بين فرق الجيش الفاطمى.

أما الحاكم بأمر الله فقد كان قصة فى حد ذاتها. فلا أحد يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث من جانبه ولهذا كان وجود ابن الهيثم فى مثل هذه الظروف أشـبه بالمجازفة. إلا إنها لم تكن أيضا معادلة مستحيلة عند ابن الهيثم الذى جاء إلى مصر حاملا فكرا جديدا من أجل مشـكلة قديمة وصعبة فى الوقت نفسه.

فقد أراد ابن الهيثم أن يدخل مصر من باب العلماء. فلم يركن إلى هذا الكـم من الكتب العلمية والاقتراحات والإضـاءات التى قدمها فى العراق والشام والتى كان أبسطها تلخيص ثلاثين كتابا للطبيب جالينوس.

ولم يكن ابن الهيثم من الذين يعيشـون لأنفسـهم فقط، بل كان عند اختيـاره للعلم طريقا لا يأنـف أن يكون تلميذا للآخرين ممن سـبقوه أوعاصروه، ولهذا رأى فى تلخيص كتب من الفكر اليونانى مهمة كبيرة لا يثنيـه عنها أحد، ويقال إن أمر ابـن الهيثم قد بلغ الحاكم بأمر الله الذى وجد فيه غايته المنشودة، ويروى القفطى أنه بلغه قول ابن الهيثم الذى يصف فيه مهمته فى ترويض النهر:

لـو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الإقليم المصرى.

ويروى القفطى أن الحاكم أرسل إليه أموالا وهدايا رغبة فى الحضور إلى مصر. ولعل الحاكم خرج لاستقباله والتقى به خارج القاهرة، وأكرمه وأمر بإكرام مثواه، ثم استمهله أياما وطالبه بما قال فى أمر النيل. ثم يقول إن ابن الهيثم سار ومعه جماعة من الصناع المحترفين لأعمال البناء بأيديهم وتتبع مجرى النيل وكأنه فى بعثة هندسية بالمعنى الحديث حتى وصل إلى أسوان.

وتجاوزها إلى موضع يقول القنطى إنه يعرف بالجنادل وعاين هذا المكان من جانبيه. ولكنه لم يجد الأمر متفقا وفكرته الهندسية التى خطرت له. ففكر وقدر فلم يجد مندوحة من العودة إلى القاهرة وهو فى أشد حالات الخجل والانخذال واعتذر إلى الحاكم.(٦٣)

وبهذا الأسلوب ظن ابن الهيثم أنه استطاع أن يتجاوز هذه العثرة العلمية وأن فكرته عن السد النيلى لم تكن أكثر من طموح لم يستطع تحقيقه.

فالمهم إنه حاول ولكن إمكانيات عصره لم تسعفه. وهو لا يريد أن يخدع نفسه ولا الآخرين وكان بمقدوره أن يستنزف الكثير من الأموال المصرية وأن يعتمد على عامل الزمن الذى يمكن أن يحل كل المشكلات.

فربما ذهب الحاكم بأمر الله وجاء غيره ونسى موضوع السد.وربما نسى أوتناسى الحاكم بأمر الله هذا الشأن وتركه برمته.

وربما توصل ابن الهيثم إلى حل فى يوم من الأيام ولهذا قد يرى البعض أن بعض السياسة يمكن أن تصلح الأمر وأن التسويف علاج للكثير من الأزمات.

إلا إن ابـن الهيثـم اختار أن يواجـه حقيقة فشـله ووضع حديثه مع سـت الملك أخت الحاكـم بأمر الله نصب عينيه فقد رن سـؤالها فى أذنيه.. فإذا كان هذا السد ضرورة وحقيقة ممكنة لماذا لم ينفذه الفراعنة الذين كانوا فى الأصل قد بلغوا قمة المعمار فى كل عصور البشرية.. فهل يفشل من بنى الهرم فى بناء سد يقى البلاد من مصائب الفيضان وويلات التحاريق؟

فقد روعته وأرقته الأثار المصرية الرابضة على شـاطئ النيل والتى لم ير لضخامتها وإتقانها مثيلا. فبالتأكيد فهم هؤلاء المهندسون المهرة كل صغيرة وكبيرة على أرض مصر تصرفوا معها بشـكل لا يعاندون فيه الطبيعة. فهذه خلاصة تجربته التى أدركها عندما شـاهد آثار الأقصر والبر الغربى وجزيرة فيلة ومنطقة الجنادل.

وبالتأكيد أيضا أن فكرته يمكـن أن تتحقق، ولكن أين هذه المعدات الضخمة التى يمكن أن تحقق حلمه الذى لم يبرح الأوراق؟!

فـى النهايـة أعلن ابن الهيثم عن عدم قدرتـه على تنفيذ حلمه من منطق عالم لا يريد أن يجازف بما قدم فى سـنوات عمره السابقة ولا أن يتحمل تبعات فشل ما أراد فى حين كان موقف الحاكم بأمر الله مختلفا. فقد أراد كحاكم أن يجنب بلاده شـر الفيضان وآلام التحاريق وأن ينظر إلى مسـألة الزراعة والنماء نظرة أخرى لا تقوم على حسـابات مفاجآت النيل. ولهذا لم يقبل اعتذار ابن الهيثم واسترد منه أمواله التى أغدقها عليه لتحفيزه على تحقيق مشروعه.

كما أغلق أبواب الجدل حول هذا المشروع وحول اتجاه الموارد المالية لبلاده إلى أشياء أخرى يمكن أن تكون أكثر إفادة لمصر. إلا إنه أبدا لم يقبل اعتذار ابن الهيثم الذى خذله أمام العلماء والمقربين الذين نصحوه من قبل بعدم أخذ حديث ابن الهيثم مأخذ الجد.

واستمرت هذه الجفوة بين الرجلين إلى أن تدخلت ست الملك أخت الخليفة بنفسها ليقرر الحاكم بعدها بإرسال ابن الهيثم ليعمل فى وظيفة متواضعة فى الديوان.

إلا إن المشكلة كانت فى ابن الهيثم نفسه الذى لم يقبل بوظيفة متواضعة بديلا عن الدراسة والإخلاص للعلم. فعندما أراد أن يتفرغ لأبحاثه وجد كل الأبواب مغلقة فلم يجد سبيلا للخروج من هذا المأزق سوى ادعائه الجنون، وأراد أن يعلنها صريحة فجاء أمام الناس بحركات غريبة وأصبح يضحك ويبكى. وقد لفت الأنظار إليه بتعاقب حالات السرور والمرح مع البكاء والحزن، وأصبح معروفا لدى الناس أنه قد أصابه مس من الجنون فرأى الخليفة أن يعزله وحده وأن يداوم عليه حراسة مشددة ليل نهار، وبهذه الطريقة المبتكرة استطاع ابن الهيثم أن يجد نفسه أخيرا حرا طليقا يملك وقته وقد منحه هذا الادعاء بالجنون فرصا ابتكارية أخرى.

فهؤلاء الحراس الذين يراقبونه قد أحدثوا خرقا فى الغرفة ليروا تحركاته وهو ما منحه فرصة كبيرة صنعتها الصدفة. فاكتشف فكرة الغرفة المظلمة التى صارت فيما بعد أساسا لفكرة صندوق التصوير

الفوتوغرافــى. ورأى الناس أبا علي واقفا فى صحن الأزهر وعلى وجهه ضحكة عريضة صامتة ورأوه يسير بين أروقة الجامع الأزهر عاقدا يديه وراء ظهره. ولم يعرفوا أنه يفكر في ظواهر انعكاس الأشعة وانكسارها وانتشارها في الأوساط الشفيفة والغليظة.

ورآه الحارســان يوما فوق ســطح بيته في وقت الظهيرة وقد غرس عــودا رفيعا في لوح خشــبى ومــد يده بخيط من أعلــى العمود إلى آخر ظــل العصا وهو يكتب ويرســم فــى ورقة. فجزم الحارســان لجهلهما باستحكام جنونه.(٦٤)

ويختفي الحاكم بأمر الله بين ليلة وضحاها ولا يعثر له على أثر. وإن كان اختفاؤه أكد فيما بعد حقيقة موته أو تحديدا قتله، ويندهش الناس فــى بر مصر مما حــدث وتوجه أصابع الاتهام للكثير من الشــخصيات ومنها ست الملك أخت الحاكم بأمر الله التى جاءت بأخيها للحكم ولكنه انقلب عليها. إلا إن لعبة الســلطان ظلت مغلقة محكمة فلم يستطع أحد أن يجزم من بالتحديد قاتل الحاكم ولماذا اختفى بهذا الشــكل ومن وراء هــذا الحادث المدبر القتل أو الاختفاء.. أســئلة كثــيرة احتفظ التاريخ لنفســه بها في خزانته الخاصة بعد أن فشــل الناس فى إيجاد إجابات سريعة تشفى الصدور.

ولكن المهم بالنســبة لابن الهيثم أن مثل هذا الحادث يعنى انقلابا شديدا في الأمور وأنه قد خرج من دائرة المظلومين ليعود مرة أخرى إلى طائفة المشغولين بالغد.

ويرفض ابن الهيثم أن يدخل فى لعبة السلطان مرة أخرى فهو قد قدم إلى بر مصر عندما اعتقد فى قرارة نفسه أنه باستطاعته أن يبنى سدا يحمى مصر من أهوال وتعاقب أيام الفيضان والتحاريق.

واستمر فى مصر ورغب بها بعد أن وجد أنها المكان الآمن الذى يكفل له الاستمرار فى أبحاثه وفتوحاته العلمية.

ولهذا لم يقبل وبأى حال أن يعود إلى البلاط الملكى كعضو بمجلس العلماء بدار العلم وأن يجرى له راتب شهرى كما أرادت ست الملك التى عادت إلى مسرح الأحداث كوصية على ابن أخيها الحاكم الصغير.

واستمر ابن الهيثم فى نسخه الكتب للوراقين بالأزهر وتعليم من تيسر له من الصغار وطالبى العلم الذى رفض أن يتقاضى عن تعليمهم الأموال حتى وصل من العمر إلى أربعة وسبعين عاما ووصلت كتبه إلى المائتى كتاب فى مختلف التخصصات العلمية.

وقتها كان على الفارس أن يترك كل شىء لمن يأتى من بعده وأن يسلم الروح إلى بارئها فى ليلة من ليالى القاهرة التى قد اعتادها وأحبها. فليلة من ليالى بر مصر تعنى عمرا بأكمله.. فقد أعطته مصر مثلما أخذت منه.

وليكن حال ابن الهيثم هو حال الكثيرين من أهل البلاد والذين بحثوا عن مرفأ أو لعله استراحة للمحارب فعزت عليهم بلاد الدنيا وأحبتهم مصر واعتبرتهم من أبنائها.

فالمصريون ليسوا هم من ولدوا على أرض مصر وعاشوا حياتهم بها وانتمت عائلتهم إليها فى حدود الجيلين أو الثلاثة أجيال، ولكن المصريين حقا هم من أحبوا البلاد وعاشوا على أرضها ووجدوا فيها السند وقت العوز.

فحقيقة لم يحصل ابن الهيثم على حقه من التكريم فى عالمنا الإسلامى، إلا إن الرجل لو عاد إلى الحياة مرة أخرى فلن يضيره أو تضيف إليه كلمات التكريم، فقد اختار العلم طريقا وكان حقا على أهل بلده المصريين أن يحملوا أفكاره إلى الأجيال التالية وهو أمر أعرف إننا نقصر دائما فى أدائه.... فمتى يفطن المصريون إلى عزهم؟!

❑❑❑